

مدرسة رواق الحنبليات
قسم الدورات العامة

شرح كتيب

الافتقار إلى الله لب العبودية

للشيخ
أحمد الصويان

شرح:
سارة بنت محمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى: مقدمة كتيب الافتقار إلى الله لب العبودية

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله تعالى فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله

أما بعد،

فهذا هو الدرس الأول من سلسلة محاضرات شرح كتيب للشيخ أحمد بن عبد الرحمن الصويان، عنوان الكتاب الافتقار إلى الله لب العبودية. وأنا اخترت هذا الكتاب لأنني قمت بشرحه من قبل، وهو كتاب سهل وله تأثير طيب على القلب، ويتناول مسألة مهمة جدا وهي أن الإنسان يشعر بالافتقار إلى الله سبحانه وتعالى، وكيف يستحضر هذ الشعور، وما هي علامات هذا الشعور، وكيف يمكننا جعل هذا الشعور شيء صحي يقودنا إلى الله عز وجل.

هذا الكتاب مؤثر ويُكتفى بقراءته ولكنني أحب أن أعلق عليه. عندما قمت بشرحه المرة السابقة شرحته تفصيلا فقد قرأنا كل كلمة بالكتاب وشرحنا معناها أو علقنا عليها زيادة أو نقصانًا. ولكن في هذه المرة سأقرأ فقط بعض كلمات الكتاب وأعلق بصفة عامة وأقول كلامًا محددًا أحب إيصاله لكم من خلال التعليق على هذا الكتاب.

بدأ المؤلف الشيخ أحمد جزاه الله عنا خيرا في المقدمة قال:

"الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد فقد اعتاد بعض المثقفين المعاصرين ذم الخطاب العاطفي مطلقا والتهوين من شأنه ويذكرونه غالبا في مقابل الخطاب العلمي المتزن والخطاب الفكري العميق؛ ولهذا قد يزهد بعضهم في المواعظ ويأمروا المثقفين وطلبة العلم بالانفضاض عن الوعاظ مطلقا؛ فحديثهم فيما يزعموا يصلح للعامة والدهماء والبسطاء ولا شك في أن الخطاب العلمي هو الخطاب الذي ينبغي أن يُعتمد عليه ولكن لماذا لا نعُد الخطاب الوعظي خطابا علميا"

التعليق:

لقد طرح الشيخ مشكلة وهي تساؤل "لماذا لا نُعد الخطاب الوعظي نوعا من الخطاب العلمي؟".

قديما كان الواعظ هو العالم فمن يعظ الناس لديه علم، لكن الآن الوضع العلمي به فوضى كبيرة جدا فنحن لا نعاني فقط من مشكلة أن المثقفين المعاصرين يقومون بذم الخطاب العاطفي. على العكس يوجد الكثير من الناس يطلبون الخطاب العاطفي بالفعل ويستثقلون ويستقبحون الخطاب العلمي ويريدون الخطاب العاطفي أو خطاب به رقة قلب أو تذكرة أي خطاب بسيط، وحتى المثقفين أو طلاب العلم في كثير من الأحيان؛ يطلب الوعظ ليجد رقة القلب.

لكن نحن لدينا مشكلة أخرى في الخطاب الوعظي وهي -لا أريد أن أقول- غالب الوعاظ، ولكن الكثير منهم يعتمدون في الوعظ على التهويل وعلى التخويف حتى لو به رقائق؛ تجد به الطرف والطرف المقابل. فهناك مثلا رقائق تصل بالأمور إلى درجة التمييع؛ بمعنى أن يجعل الدين كله حب حب حب وهذا غير صحيح.

لكن الدين في الحقيقة به "**خوف أو خشية**" من الله سبحانه وتعالى، وهذه لها لذة لها مواضعها، وبه "**رجاء**" الذي له لذة أخرى لها مواضعها أيضًا، وبه "**محبة**" وهذه لها لذة لابد أن تكون مع الاثنين؛ الخشية والرجاء.

فالاعتماد على التخويف فقط، أو الاعتماد على الرجاء فقط، أو الاعتماد على المحبة فقط؛ كان محل انتقاد عند أهل العلم قديما. فكانوا يصفون من يعتمد على التخويف فقط بأنه "**حروري**" والحرورية؛ هم فئة من الخوارج يعتمدون على التخويف، فالخطاب الوعظي عندهم هو التخويف ولا يستحضرون جانب الرجاء. ومن غلَّب جانب الرجاء تغليبا يُمحى معه جانب الخشية فهو "**مرجئ**" وهؤلاء نوع من أنواع أهل البدع، الذين يأخذون الأمور كلها من باب الرجاء ولا يستحضرون معاني الخشية والخوف من الله سبحانه وتعالى.

فالفئة الأولى يغلِّبون الخشية والتخويف من النار ولا يذكرون الجنة حتى يصلوا لدرجة القنوط. والفئة الثانية يغلِّبوا الرجاء حتى يصلوا إلى درجة التفلت والانحلال من رقة الشرع، ففي ظنهم أن ربنا رحيم ولن يعذب أحدا ونحن سندخل الجنة على أي حال. ومن تكلم في الوعظ بالحب فقط دون الرجاء والخشية تزندق حتى إنه يتكلم عن الذات الإلهية بصورة غير لائقة ويستخدم ألفاظًا مثل العشق وغيرها مع الذات الإلهية.

والصواب أن نجمع بين الثلاث، فكان بعض العلماء يقولون أن رأس الطائر المحبة وجناحيه أحدهما الخوف والآخر الرجاء. فلابد أن يجمع الوعظ بين الثلاثة. فإن اعتمد الوعظ على التخويف فقط قد يصل بالإنسان إلى القنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى.

المشكلة الثانية التي نعانيها في الخطاب الوعظي: هي الخلط بين الفقه والموعظة. فعلى سبيل المثال "من الجيد أن أحثك على عمل الصالحات أو المستحبات، ولكن دون أن أجعلك تشعر بأن المستحب فرض، وهذا خلط بين الفقه والوعظ ولابد من التفرقة بينهما. فالفقه دوره أن يحدد لك الحد فيقول هذا حرام وهذا حلال وهذا مكروه وهذا مستحب، فدوره أن يفهمك الأحكام التكليفية وعلاقتها والحد الأدنى والحد الأعلى. أما الكلام الوعظي فدوره أن يحثك أن تفعلي الفرض وزيادة "أي النوافل" أو تمتنعين عن الحرام والزيادة "أي المكروهات". لكن لا يخلط لك بين الفقه والوعظ لدرجة أن يصل عندك أن المستحب فرض بالإجماع. وهذا لا يصلح؛ لأنه من الامور التي تجعل الشخص لا يستجيب للوعظ أو يقنط من رحمة الله أو حتى أنه يستجيب ويلتزم بها فيشق على نفسه مشقة عظيمة تجعل الأمور تتفلت منه.

أيضا من المشاكل التي نعانيها في الخطاب الوعظي: البعد عن الضبط العلمي لأعمال القلوب بمعنى أننا لا نفهم الفروق في أعمال القلوب. مثال على هذا:

- عندما يتحدث الإنسان فيذكر أعماله الصالحة فهل هو يرائي أم أنه أعلن العمل لغرض صحيح.

- عدم الفهم أو التمييز بين الوسواس والخاطر الذي يمر بنا ونرده. فهناك فروق كبيرة جدا في أعمال القلوب لا بد للإنسان أن يتعرف عليها حتى لا يقع في الوسواس أو أن يقع في أن يقنط من رحمة الله. فلابد من الضبط العلمي لأعمال القلوب. بلا شك لا أحد يخلو من الخطأ، ولكن لابد من التنبيه على هذا الأمور حتى يتكون لدى الإنسان بصيرة بنفسه ليعرف ما يناسبه وما لا يناسبه.

وهنا نحتكم للقاعدة العامة التي وضعها ابن القيم وهي "أن أي خاطر يأتي لك يزيد من حماسك وقربك من ربنا فهو من الملك، وأي خاطر يبعدك عن الله عز وجل ويقنط من رحمة الله فهو من الشيطان" ، فمثلا قد يفتح الشيطان الكثير من أبواب الخير ليشعرك بالعجز والقنوط من رحمة الله عز وجل. وهنا لا بد من التحقق من اختيار الخطاب الوعظي الذي نسمعه حتى يتخير الإنسان ما يناسبه فيسمعه وما لا يتناسب معه فينأى عنه. فالخطاب الوعظي خطاب مهم يحثنا على طاعة الله عز وجل لكن لابد أن ننتقي ما نسمع، وكيف نسمع، وحتى كيف نتكلم إن كنا نتحدث بالوعظ حتى لا نقع في مشكلة إيصال الناس إلى القنوط من رحمة الله أو الانفلات والتساهل في ترك الأعمال. ومع ذلك فلابد من معرفة احتياجنا الشديد للخطاب العاطفي.

وهنا يقول الشيخ أحمد:

"لقد وصف الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز بأنه موعظة فقال تعالى: "وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ"، وقالى تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ". ومن المسائل الجديرة بالتأمل أن بيان الكثير من الأحكام الشرعية في القرآن يصدر بالموعظة أو بالأمر بالتقوى أو يختم بأحدهما".

التعليق:

وهذا حقيقي فمثلا ما الشيء الذي يجعلك تستيقظين لأداء الفجر في البرد إلا أن هناك واعظًا في قلبك، حب لله سبحانه وتعالى، خشية ربنا سبحانه وتعالى ورجاء رحمة ربنا سبحانه وتعالى. إذا لابد من وجود خطاب عاطفي يحرك هذه المشاعر مثل شعورك بالرجاء والخشية والمحبة.

ثم يستكمل الشيخ أحمد ويقول:

"إن الموعظة إحياء للقلب وكبح لجموح النفس وإسرافها وبعدها عن ربها وغفلتها عن دينه والقلب الجامد الذي لا يتأثر بالموعظة كالصخرة الصماء ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول؛ اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع".

التعليق:

نقف هنا مع هذه المسألة؛ فهناك بعض الناس تشعر بأن قلبها جامد ولا يتأثر وتشعر بالحزن لذلك، وهنا أطرح السؤال التالي: كيف تقول أن قلبك لا يتأثر بالرغم من حزنك على عدم تأثره هذا؟ فطالما أنك حزين؛ إذن قلبك ليس جامدًا ولا قاسٍ. حتى أنك تجد بعض الناس تقرأ آيات المنافقين فيسقطها على نفسه يقرأ آيات الكفار فيسقطها على نفسه. وهذه الطريقة خطأ في تعاملك مع النفس، وتجعل القلب نافرًا ويخاف من سماع المواعظ؛ لأن جلدك لذاتك بعد ذلك يعذبه، فلا بد من أن تعطي لنفسك الفرصة للشعور بأنك تشعر. وأنت بالفعل تشعر فمجرد الشعور بالحزن هو إحساس بالتقصير في شيء سواء كان سننا أو فرضا أو غيره. فالشعور بالضيق وعدم الارتياح يعني أنك متأثر، ولكن يبقى أن تجعل من هذا التأثر وقود للعمل لتجعل منها وسيلة للتقرب.

مشكلتنا في الوعظ أنك تحصر التأثر في شيء أو هيئة معينة، تحصره في لذة معينة أو انتشاء أو سعادة معينة أو دموع، فإن لم يتحقق ما تتوقعه أو تتخيله؛ تحكم على نفسك بأنك غير متأثر. وهذه الطريقة في التعامل مع النفس خاطئة، فالتأثر يحتاج فقط أن ترصده وتلاحظه في نفسك. فمثلا قد يصل بك الشعور بالخوف إلى التبلد الذي يجعل الإنسان لا يفعل شيئًا ويقيد حركته، وهنا لابد من تقليل الخوف حتى يكون صحيًا. فيكون خشية مخلوطة بحياء من الله سبحانه وتعالى وإقبال عليه سبحانه وتعالى وليس الخوف الذي يجعلك تهرب؛ لأن الهروب إلى الله سبحانه وتعالى هو هروب إلى الله وليس هروب من الله عز وجل، فحين يدخل الخوف في هذا النفق المظلم تشعر بأن هناك شيء ما خطأ وتظلم نفسك بالحكم عليها بعدم التأثر أو الخوف من الله. لذلك ضع قاعدة ابن القيم أمامك؛ فالمشاعر أو الخواطر التي تمر بقلبك وتؤدي بك للزيادة هي مشاعر صحيحة من الملك والثانية من الشيطان.

وهنا يأتي دورك في تحويل كل هذة المشاعر السلبية من الملل والندم والخوف والضيق إلى مشاعر الخشية والإقبال على الله وليس مجرد الخشية التي تؤدي بك إلى الهروب أو البعد أكثر حتى لا أسمع مواعظ أكثر تؤلمني. فنحن في احتياج لتفهم أنفسنا بشكل أفضل وجعل هذه المشاعر محرك لي للأمام حتى أشعر في نهاية الأمر بالتلذذ، وإن لم أتلذذ بالطاعات لا أجلد ذاتي وأتهمها بالقبح.

فلابد من فهم أنه طالما أنك تشعر بالضيق وعدم الارتياح فهذا شيء إيجابي؛ لأنك تطلب وتطمع في القرب من الله سبحانه وتعالى. ودورك هناك أن تجد الشيء الذي تحبه ويقربك من الله سبحانه وتعالى، فمثلا إن كنت من الناس التي تحب الذكر؛ إذا سبِّح وصلِ على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كنت ممن يحبون القرآن سماعًا أو قراءةً؛ إذًا اسمع، وإن كنت ممن يحبون الصدقة؛ فتصدق، لكن لا تقف وتقل لنفسك أنا أشعر بالضيق والعجز ولا أستطيع عمل شيء. لا يوجد عجز لا يزال لسانك رطب بذكر الله عز وجل استغفر، صلِ، اسجد، لكن لا تقل لنفسك أبدا أنك لا تشعر وأنك سيئ وأن قلبك قاسٍ وجامد، فقط افهم مشاعر قلبك حتى تتمكن من استغلالها في أن تكون وقود للعمل الصالح.

ثم تحدث الشيخ عن مواقف النبي صلى الله عليه وسلم، تربيته لأصحابه، وكيف كان يستثير مشاعرهم الطيبة وعواطفهم لعمل الأعمال الصالحة.

ثم قال الشيخ:

"إن ذلك كله يؤكد أن الوعظ ليس خاصا بالعامة فحسب، بل إن العلماء والمفكرين وطلبة العلم أحوج ما يكونون إلى الموعظة فهي تهذيب للنفس وترويض لكبريائها وشططها تدفع المرء للتجرد في البحث عن الحق والصدق في التماس الدليل الصحيح وفي الترجيح بين الأقوال فلا يتيه به الهوى في دركات التعصب والاعتداد بالنفس وبطر الحق خاصة في زمن الفتن وانتشار الأهواء والشبهات؛ ولهذا كان العلماء هم أكثر الناس خشية لله تعالى وقنوطا إليه، قال تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ".

التعليق:

أود أن أعلق هنا تعليقًا مهمًا جدًا فيما يتعلق بالكلام على الصدق في التماس الدليل الصحيح وفي الترجيح بين الأقوال. حيث إن الشيخ قال جملة بعد ذلك وفيها -يعني الموعظة- إحياء للقلب المعرض الذي أسره الهوى وسيطر عليه التقليد والتبعية. وهنا نود أن نتحدث عن قضية هامة فيما يتعلق بالتقليد والترجيح؛ فالتقليد في المسائل المتعلقة بوحدانية الله سبحانه وتعالى والشهادة بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم هذا لا يجوز فيه التقليد أصلا. فقد ذم الله سبحانه وتعالى الكفار لأنهم يقلدون آباءهم وكبراءهم في مسألة معرفة الله سبحانه وتعالى ووحدانية الله والشهادة للأنبياء بالصدق، وهذه الأشياء لا يجوز التقليد فيها؛ لأن أدلتها واضحة باهرة، حيث إن في كل كبيرة وصغيرة آية تدل على أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له والأنبياء ربنا سبحانه وتعالى يؤيدهم بالآيات المبهرة حتى الآن.

فالقرآن نفسه آية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فما من كافر قرأ القرآن طالبا وصادقا في طلب الحق إلا وأسلم. وهذا مشاهد ومعروف وهو من علامات أن الإسلام هو دين الحق. فسبحان الله العظيم فالإنسان في مسألة وحدانية الله والشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة هذا الإيمان المجمل لايجوز فيه التقليد تماما. أما الفقه والفروع فهذه مسألة انتشر للأسف أنه لا يجوز التقليد فيها أيضًا. والمفروض أن كل شخص منا حتى وإن لم يكن دارسًا أو طالبًا للعلم أن يجتهد وهذا الافتراض به مشكلة.

وهنا يأتي سؤال؛ هل تقليد الأئمة الأربعة يندرج تحت الذم الذي ذمة الله عز وجل للمقلدين؟

وهنا نقرأ كلام لابن قدامة في روضة الناظر لنعرف، يقول:

"وأما التقليد في الفروع فهو جائز إجماعًا فكانت الحجة فيه الإجماع. وأن المجتهد في الفروع إما مصيب وإما مخطيء مثاب غير مأثوم فلهذا جاز التقليد فيها بل وجب على العامي ذلك".

وهنا يتضح أنه ليس مجرد أنه جائز بل واجب عليه أن يقلد في الفقه فلا يجوز له الإجتهاد، لماذا؟

يكمل ابن قدامة ويقول:

"وذهب بعض القدرية أن العامة يلزمهم النظر في الدليل الفروع أيضًا وهو باطل بإجماع الصحابة، فإنهم كانوا يُفتون العامة ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد".

التعليق:

إذا فإن ابن قدامة يرى أن النظر في الدليل في الفروع هو عمل المجتهد وليس عمل العامي ولا طالب العلم المجتهد، وتعريف طالب العلم هنا يحتاج إلى وقفة لدرجة أن أئمة كبار يعتبرون أنفسهم مقلدين وليسو أهلا

للترجيح أو الكلام أو الاجتهاد المطلق أو حتى الاجتهاد في المذهب، ويقولون بأنهم يلتزمون بالنقل وهذه هي مرتبة طلبة العلم الذين ينقلون المسائل كما هي بدون الزيادة عليها أو القياس عليها، فكيف بصغار الطلبة وعامة الناس الذين لا يعرفون حتى تسمية كتب الفقه ويقومون بالترجيح والكلام والخوض فيما ليس لهم به علم. فالعامة لا يلزمهم النظر في الدليل والنظر في الدليل وظيفة المجتهد ويستدل على هذا بأن إجماع الصحابة كانوا يفتون الناس ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم.

إذا فالنظر في الدليل بأنفسنا سواء كانت النتيجة تشديد أو تمييع فأنت مخطئ، سواء كانت النتيجة التي ستصل لها صحيحة توافق بعض أهل العلم أو خاطئة فأنت أيضا مخطئ. فمن قال برأيه فقد أخطأ ولو أصاب. فلا يجوز أن نتكلم في دين الله سبحانه وتعالى بغير علم مهما كانت النتيجة التي تصل لها حتى وإن كانت صحيحة فهنا يأتي الورع فمن الواجب إمساك اللسان عن الخوض في هذه المسائل بدون دراسة حقيقية تؤهلني للكلام، وأن الترجيح بين أقوال المجتهدين. طبعا لا نتحدث عن ما هو معلوم من الدين بالضرورة أو المسائل الكبرى كالإيمان ووحدانية الله والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، هذه مسألة لا يجوز فيها التقليد وهي التي ذم الله سبحانه وتعالى المقلدين فيها.

فلابد للإنسان أن يجتهد فيها وأن يأخذ بالأدلة العقلية فيها؛ حيث إنها مسألة لا تحتاج إلى فقه فالإنسان يستطيع أن يجزم يقينًا ويصدق أن الله سبحانه وتعالى واحد ويمكنه أن يصدق يقينا أيضًا أن النبي صلى الله عليه سلم هو مرسل من عند الله عز وجل. وتلك المسائل لا تحتاج إلى كبير علم فالإنسان مؤهل أن يجزم فيها بغير تقليد بوحدانية الله وأن محمد رسول الله. ((معنى هذا الكلام أن من كفر بالله أو ألحد وقال أنه كفر وألحد تقليدا لفلان أو فلان فهذا التقليد لا ينفعه ولا يعذر به بل لو قال: أنا اجتهدت ووجدت الكفر هو الصواب فإن هذا الكلام لا ينفعه لأن أدلة وجود الله ووحدانيته ورسله واضحة مبهرة))

أما مسائل فروع الفقه؛ فتلك مسائل دقيقة وتحتاج إلى استدلال وتحتاج إلى نظر في الأدلة، ومجموع الأدلة، وقواعد أصول الفقه، وتحتاج إلى لغة عربية قوية، لذلك كان هناك عوام وعلماء. إذن فالعامي ليس عليه أن ينظر في الدليل وليس له الحق أصلا أن ينظر فيه، بل وجب عليه التقليد، فمن يقلد؟

هنا يأتي كلام الكثير من العلماء، ولكن نذكر كلام ابن خلدون لأنه واضح جدا فقد قال: **"وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة"** ويأتي اجتهاد العامي فقط في اختيار من يستفتيه والبحث عن المتقن لمذهب من المذاهب الأربعة وليس ملزما بأن يتبع نفس الشيخ أو يتبع نفس المذهب دائمًا، ولكن وجب عليه فقط أن يسأل من عنده الفقه الموروث أو التراث وهو فقه الأئمة الأربعة. وهذا الفقه مبني في الأساس على الأدلة الشرعية وليس على آرائهم، فهو لا يضاهي شريعة الله سبحانه وتعالى أو تضاهي فقه النبي. ولكن فقه الائمة الأربعة في الأساس هو فقه النبي وفهم هؤلاء الأئمة المؤهلين لهذا والذين أجمعت الأمة على براءة ذمة من قلدهم وأنهم علماء.

فقد قال الله سبحانه وتعالى: **"فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"**. فهؤلاء هم أهل الذكر فهؤلاء الأئمة الأربعة أنت بريء الذمة إن قلدتهم. فهؤلاء تفقهوا في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وفي كلام الصحابة وفي فتاوى الصحابة وفي القرآن وفي قواعد أصول الفقه. وباقي المجتهدين إما وصل إلينا فقههم من ضمن فقه

المذاهب الأربعة وإما لم يصل. ولهذا ليس لدينا فقه وصل لنا نتعلم منه غير فقه الأئمة الأربعة وأنت تجتهد في اختيار من تستفي من أتقن مذهبًا من المذاهب الأربعة دون التقيد بشيخ محدد أو مذهب محدد.

هناك أيضا قول جميل للعلامة المرداوي يقول:

"فإن مدار الإسلام واعتماد أهله قد بقي على هؤلاء الأئمة يعني الأربعة واتباعهم وقد ضبطت مذاهبهم وأقوالهم وأفعالهم وحررت من غير شك في ذلك بخلاف مذهب غيرهم وإن كان من الأئمة المعتمد عليهم. لكن لم تضبط الضبط الكامل. وإن كان صح بعضها فهو يسير، فهو لا يكتفى به وذلك لعدم الاتباع".

التعليق:

أي لم يتبعهم الكثير ولم تحرر مذاهبهم ولم تخصص كتب لمذاهبهم. ففي زمانهم كانت تبرأ الذمة باستفتاء غير الأربعة ولكن نحن في زماننا لم يصل إلينا من تراثنا الذي نعتز به ويمكن أن نقلده ونتبعه غير الأئمة الأربعة. وإلا كيف أفهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم في ظل تردي اللغة العربية والبلاغة!

فلا نملك العلم الذي يجعلنا مجتهدًا مطلقًا يمكنه فهم القرآن والسنة فهمًا صحيحًا، حتى أنه قد يبدو لك على سبيل المثال أن حديثا ما عن النبي صلى الله عليه وسلم واضح وصريح وفي الحقيقة أن فهمك خاطئ والحديث ليس واضحًا ولا صريحًا بل له فقه. فالمسألة ليست سهلة وبالتالي أنت ليس أمامك سواء دراسة مذهب من المذاهب الأربعة وفهم طريقة استدلاله ومدرسته الفقهية أو الاستفتاء والتعلم على يد أحد العلماء الذين درسوا المذاهب الأربعة. وهذا التقليد غير مذموم كما بيَّنا، بينما التقليد المذموم هو التقليد في مجمل الدين (القصد أن التقليد المذموم هو التقليد في الكفر والإيمان بالله وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم).
فالخلط بين حكم التقليد في الفقه وفي مجمل الدين مسألة كبيرة جدًا أدت إلى أنه يُتصور أنه من الممكن أن يتكلم في الفقه من ليس أهلا للكلام في الفقه، فتجد أن هناك فئة تشدد على الناس وتقول أن الحديث واضح وصريح ويحكم بحرمة شيء ما، وآخرون يزعمون أن الحديث ليس واضحًا ولا صريحًا.

مثال الآية الكريمة: "**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ**" أن تغطي بالخمار فتحة الثوب (لا الشعر) فأين هم من الإجماع وأين المذاهب الأربعة؟ أين باقي الأدلة؟ فهذا فهم للآية بفكرك وأسلوبك وأصبح كل منا يتحدث في الدين بفهمه وفكره. فنجد النقيضين المتشددين الذين يدّعون الورع والمتميعين الذين ينادون بعدم التشديد على الناس وينفون ما أجمع عليه العلماء وبينهما يضيع الدين؛ لأن كل شخص يفهم الأدلة كما يحلو له فيضيع الدين. ولكننا نلتزم بالمذاهب الأربعة التي وصلت لنا محررة ومسبوكة ونتعلم منها ونستفتي بناءً عليها وهذا تقليد غير مذموم؛ لأن انتظار كل شخص لدراسة الفقه حتى يصل إلى مرحلة الإجتهاد والتمكن من النظر في الأدلة يعتبر ضياع للمعاش، ولن تجد أحدًا يعمل عملًا آخر غير دراسة الفقه.

ولو سهلنا المسألة أو قمنا بتسطحيها وصرحنا بأنه بإمكان أي شخص أن ينظر في البخاري ومسلم والقرآن ويفتي ويتكلم بفكره؛ سيضيع الدين لأن هؤلاء الناس ليس لديهم أهلية للنظر في الأدلة وكما قلنا أن أصل إجماع الصحابة بأنه لا يجب على العامي أن ينظر في الأدلة بل أن يقلد في المسائل الفقهية بل وجب عليه ذلك كما قال ابن قدامة.

وبهذا نكون قد انتهينا من مقدمة الشيخ أحمد بن الصويان، وقد اعترضت على الشيخ في بعض المسائل مثل مسألة ذم التقليد مطلقا، هذا خطأ في الكلام؛ لأن التقليد لابد أن يكون في حكمه تفصيل، هناك مسائل لا يحل فيها التقليد وهي الإيمان المجمل "لا إله إلا الله محمد رسول الله" والمسائل الواضحة والجلية مثل فرضية الصلاة والحجاب فرض، فهذه مسائل لا تقليد فيها، لا يجوز لك فيها الركون إلى رأي مخالف للإجماع. أما فروع الفقه فليس فيها ذم التقليد بل على العكس وجب على العامي التقليد فيها، وهذا ليس تعصبًا؛ لأنه لا يطالبك بإنكار شيء على غيرك لأن الطرف الآخر نفسه يقلد آخر، بل على العكس التقليد في مسائل الفقه يجعلك غير متعصب؛ لأنه يشعرك بقيمتك الحقيقية وأنك مقلد ولست عالمًا ولن تحمل أحد على ما أخذته وأنك تعمل فيه تقليدًا؛ حينها نصبح مسلمين يهتمون بالعمل لا بالجدل.

****

****